يوم المرأة العالمي... ب

الحياة على هامش المجتمع
«أنا حرة»

يصعب على المجتمع الشرقي أو اللبناني بنحو خاص أن يتخيّل المرأة في غير صيغة الزواج التقليدي. تحدّد لها البيئة التي تعيش ضمنها، الخطوط الحمر التي عليها أن تبقى ضمنها. لكن ثلاث نساء قرّرن الابتعاد نحو الهوامش، أو حتى اختراق الخطوط الحمر جميعها، لينتزعن حقهنّ في حريّة اختيار شكل العلاقة التي يردنها

زينب مرعي

عندما يسأل أحدهم ناديا عن سبب عيشها وحدها في البيت الجبلي مع ابنها الصغير، بعيداً عن زوجها وابنيها الآخرين، تجيب بأنها تأخذ وقتاً مستقطعاً من الحياة البيروتيّة. وعندما تغادر ميساء مع انتهاء عطلة نهاية الأسبوع، بيت العائلة في طرابلس، يعتقد أهلها أنها تعود إلى شقتها الخاوية في بيروت، حيث تعمل. أمّا سناء فهي تخفي موضوع عقد «متعتها» بالكامل عن أعين العائلة والمجتمع. ثلاث نساء، يعملن في مجالات مختلفة. اختارت كلّ منهنّ شكلاً لعلاقتها مع الرجل، مختلفاً عن ذلك الذي يحدّده المجتمع بالزواج التقليدي. لكن ما يجمع بين قصصهنّ هو الالتفاف على حقيقتهنّ أمام مجتمع لا يريد أن يرى المرأة إلا وقد أتمّت زواجها في سنّ معيّنة، لتلتحق بذلك بركب السواد الأعظم من الناس، وتكمل من بعدها واجبها «الاجتماعي» بإنجاب الأولاد.

بعد عشرين سنة من الزواج، قرّرت ناديا أن تعيش في بيتها الجبلي، بينما يعيش زوجها في بيروت «كي يستمرّ حبّهما»، عاملةً بمبدأ كتاب «النبي» لجبران خليل جبران: «فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض حتى ترقص أرياح السموات فيما بينكم». بينما قرّرت ميساء منذ سنتين ونصف أن تعيش مع صديقها تحت سقف واحد من دون عقد زواج. فيما يربط سناء، المطلّقة، بصديقها عقد زواج «متعة».

من بين الثلاث، كانت المهمة الأصعب الحصول على اعتراف من امرأة متزوجة بحسب عقد «المتعة»، مع أنّ الرجل يجاهر بـ«متعته» من دون حسابات كثيرة. لكن المرأة التي تعترف بعقد زواجها «المتعة»، كأنّما تعترف بحاجتها الجنسيّة، بما أنّ هذا الزواج مرتبط في ذهن المجتمع بإشباع الرغبات الجنسيّة.

الحديث مع سناء أشبه بالحديث مع عميل سرّي. لا تعرف متى يقفل الخط. وعليك أن تعيد الاتصال في وقت تعتقده مناسباً كي تستطيع أن تكلّمك عن زواجها، مثل فترات خلوّ مكتبها من الزبائن، أو قبل مغادرتها إلى المنزل حيث لا يمكنها التكلّم عن الموضوع بما أنها تعيش مع ابنتها. طلاق سناء، ولو أنّه كان في سنّ مبكّرة جداً، جعلها «غير صالحة للزواج» بالنسبة إلى الكثيرين. هكذا عجزت عن الزواج من ابن عمها الذي أحبّته في الرابعة والعشرين من عمرها بسبب معارضة أهله. اليوم وبعدما أصبحت في الأربعين تقول: «لا أريد أن أترك ابنتي، ولكنني أيضاً أريد أن أعيش حياتي. هذه المرّة الثانية التي أعقد فيها مثل هذا الزواج. لكنني، أو الرجل لا نطلبه من بعضنا. القصّة أنني صادفت بعد طلاقي رجلين استلطفتهما وشعرت بانجذاب نحوهما، بعدها حدثت الأمور بعفويّة. وأنا أريد أن ألتقي بصديقي بشكل حميم ولكن أيضاً بصيغة شرعية. معظم النساء يبنين هذا الزواج المؤقّت على أساس الإعجاب والانجذاب، رغم أنّ الفراغ الذي تعيشه بعضهنّ، يجعلهنّ في بعض الأحيان يخترن بشكل عشوائي شريك هذا الزواج».

ميساء لم تكن تحتاج إلى صيغة شرعيّة لتعيش تجربة «المساكنة» مع صديقها، أو «شقفة ورقة» (الزواج) لتضفي الشرعيّة على علاقتهما. هي لم ترفض يوماً فكرة العلاقة الجنسيّة قبل الزواج، من هنا أصبحت «المساكنة» لديها علاقة مقبولة. لكن ميساء اختارت شكل العلاقة هذه مع صديقها لسببين. الأول هو صدمة اكتشاف الآخر، التي يعاني

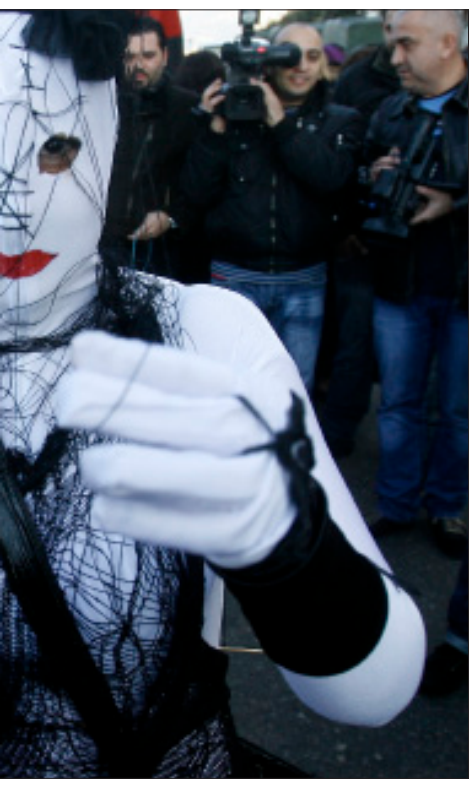

تحتاج المرأة إلى الجرأة حتى تنجح في تغيير المحظورات الاجتماعية (مروان طحطح)

مدرجات في «سيداو»

تشكو كلّ من إلهام وفاطمة، عفوياً، عدم تقدير كفاحهما. إلا أن هذه الشكاوى لم تؤسس لتشكيل نقابة أو تعاونية لضمان الحقوق. زميلتهما علية نجدي قررت تكريم نساء صريفا المزارعات بترشيح إحداهن إلى المجلس البلدي قبل عامين. لكنها قوبلت بسؤال اعتراضي: «شو ما فش زلم بالضيعة؟». وبالنظر الى سجلات المزارعات الشخصية اللواتي يسلمن محاصيل التبغ في مستودع صريفا، أي أن الرخصة باسمهن، يتبين أنهن إما أرامل أو يتيمات ورثنها عن أهاليهن أو مطلقات أو قلّة من القادرات على فرض إرادتهن. فالرخصة ليست ورقة فحسب، بل هي تمكّن صاحبها دون غيره من تسليم المحصول وقبض سعره وبالتالي التصرف به. مع ذلك، فإن الرخص حكر على الرجال، إلا نادراً. لا تعلم المزارعات بأنهن كنساء ريفيات، ملحوظات في المادة الرابعة عشرة من اتفاقية القضاء على أشكال التمييز ضد المرأة، السيداو، «نظراً للأدوار الهامة التي تؤديها من أجل تأمين أسباب البقاء لأسرتها».

الأرض مؤنث... التمييز مذكر

يوماً بعد يوم، يتقلّص عدد النساء المزارعات في الأرياف تحت ضغط تبدّل طرق العيش والغذاء. لكن الكثيرات ممن صمدن وقاومن رياح التغيير وتمسكن بالأرض، لم يكافأن، لا اقتصادياً ولا اجتماعياً ولا تمثيلياً أو حتى بكلمة «يعطيكن العافية»

آمال خليك

في رحلة البحث عن النساء المزارعات في الجنوب، توجهنا إلى السهل الساحلي الممتدّ من منطقة الزهراني حتى الناقورة، حيث تنتشر بساتين الحمضيات وحقول الخضر والموز ومروج الحبوب. انطلقنا باكراً لنلتقي بالفلاحات اللواتي لا تزال ملامحهن وهممهن القوية، تتردّد في حكايا الجدّات لدى استعراضهن لتجربة العمر. «تفتح البنت عينيها في منزل ذويها على العمل متعدد المهمّات»، تقول الحاجة أم محمود (75 عاماً). منذ الصغر تصبح أماً و«ست بيت» بديلة تتولى رعاية إخوتها وتتدبر شؤون المنزل، في غياب أمها التي تكون قد غادرت مع حلول الفجر إلى الحقل. لكنها وقبل المداومة من الفجر إلى النجر، تكون قد أعدت الطعام لعائلتها قبل انبلاج الليل.

بعد انتظار طويل، لا تأتي الفلاحات القرويات، بل تتدفق رفوف من نساء تتراوح أعمارهن بين مقتبل المراهقة ومقتبل الشيخوخة. تحرص الصبايا على إخفاء ملامحهن خجلاً، خلف وجوه تعبة وطبقات متعددة من الثياب المعفرة بالتراب. أمامهن يسير رجل يقودهن إلى نقطة عملهن لهذا اليوم. الراعي لبناني، لكن النساء عاملات سوريات من ضمن آلاف لحقن بأقاربهن الذين سبقوهن للعمل في قطاع الزراعة في لبنان. نسأله عن اللبنانيات. يجزم بأنهن «انقرضن» في المنطقة، إذ باتت الزراعة تعتمد على العمال والعاملات الأجانب ذوي الأجرة الأرخص والمحرومين من الضمان. بالنسبة إلى النساء، يلفت إلى أنهن «أقلعن عن أساليب العيش القديمة وتوجهن نحو العلم والوظائف أو (تستتن) في البيوت»، مقرّاً بأن سبب «السماح لهن بالخروج والعمل كان الحاجة إليهن قبل موضة استئجار العمال». والأهم أنها بذلك «لا تصنف عاملة بل تساعد عائلتها، أي تقوم بواجبها». نكمل جولتنا بحثاً عن المزارعات اللبنانيات. في سهول العباسية ودير قانون النهر لا يتبدل المشهد كثيراً. «اجتياح» العمال السوريين والفلسطينيين للحقول، يدفعنا إلى طلب المساعدة في العثور على اليد المحلية. واللافت أن من كانت سيدة مزارعة في شبابها، أصبحت الآن عجوزاً وفّر لها أبناؤها، في حال سمحت قدرتهم المادية، عاملة أجنبية تريحها في المنزل بعدما حلّ محلها في الحقل عمال آخرون. يدلنا رجل عجوز إلى جناتا ودبعال وبافليه وأرزون. قرى صغيرة الحجم، لكن سكانها القليلين متمسكون بزراعة التبغ التي لا تعير عمّالها إلى أي قطاع آخر. من هنا، تتوجه عجلتنا نحو صريفا حيث العدد الأكبر من «مزارعات التبغ».

الدخان الذي يستمر طوال أربعة عشر شهراً متواصلاً، يقوم على أكتاف النساء في صريفا بمراحله كافة. فاطمة بركات (49 عاماً) تعدّ من أكثر المزارعات إنتاجية. تنتج في كل موسم مئات الكيلوغرامات من التبغ بمساعدة زوجها. لكن هذا ليس كل شيء. فهي حالياً أم لستة أولاد وربة منزل حديث، انتقلت إليه منذ ثلاث سنوات بعد ورشة بناء استمرت عشر سنوات، أنفقت عليها من عرق جبينها مع زوجها. ورغم تبدل طرق العيش، فإن فاطمة لا تزال عالقة في

تقاوم أجسادهنّ الانهيار في سبيل لقمة العيش (حسن بحسون)